التربية الإسلامية

أيها القارئ الكريم:

إن التربية الإسلامية الصحيحة تستوجب حُسن القُدوة في كل شئ.

فالطفل يُولَد بين أبوين، وينشأ في ظل أسرةٍ ترعاهُ ومجتمعٍ يحوطه.

وهو شديدُ التأثير بما حولَه، سريعُ التقليد والمحاكاة لِما يَرى. فإنْ رأى خيراً قلَّده، وإن رأى مُنكراً حاكاه. يَنْشَأُ الناشئُ على ما تَعَوَّدَ.

لذا كان لا بُدَّ من توفُّر القُدوة في البيت أولاً، وبخاصةٍ في الأبوين اللذين تبدأ حياة الطفل بينهما.

وعناية الإسلام بالتربية تبدأ قبل أن يُولد الطفل بتهيئة جوٍّ صالح. إنه يأمر بتخير التربة الصالحة لغرسِ نبتٍ كريم.

يحرصُ الإسلام على تخير ذات الدين التي يُمْلي عَلَيْها دينُها أن تحفظ الرجل في نفسه وماله، ولا يَرى منها إلا مَا تَطيبُ به نَفسُه ويطمئنُّ له قلبه.

روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا. فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ » [1]

وليس المقصود المقارنة بين الدين وغيره من المال والجمال، أو التنفير منهما، بل المراد أن يكون هدفُ الإنسان أولاً الدين، وهذا لا يتعارض مع الجمال أو المال أو الحسب، ولكن شيئاً من ذلك لا يصلح أن يكون مقصودَ الإنسان من الزواج مُجرَّداً عن الدين.

---

(١) رواه البخاري.

وليس المطلوب نَظَرَ الرجل فقط إلى ذات الدين، بل نظرُ المرأة أيضاً فلا تُخدَع بما ترى من ألوان المتع والزينة، فإن الناس معادن فلا يُخْدَعَنَّ أحَدٌ بالبريق الزائف عن الجوهر الأصيل.

في الحديث المتفق عليه عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي قَالَ: « مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ. قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ. فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْتَمَعَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا » (١)

ذاك حرصُ الإسلام على تخير التربة الصالحة والبذرة الصالحة، بل الجو الصالح الذي ينشأ فيه الطفل الوليد. إن الحياة الزوجية حياةٌ ممتدة وكما يقولون في التعبير الدارج: (عشرة العمر).

وهذه تطلب من الصفات الإنسانية أولاً ما يدعو إلى التحمل والقناعة والصبر والرضى، أنت تطلب زوجاً يعجبُك حُسنُها، وتسعى بِكُلِّ الوسائل الممكنة للظفر بها. يتم الزواج وتقع العشرة فلا تلبث أن ترى هذا الجمال المرغوب وقد أصبح عادياً بالنسبة لك.

فالشئ ترغب فيه إذا امتنع عليك، وتزهد فيه إذا وصل إليك واستدام معك، وتأتي الحياةُ الرتيبة التي تنشد صفات النفس المستقرة؛ لكي تتوافر للبيت نِعمتُه من الأمانَة والرضى والقناعة مع الصبر، والتحمل لظروف الحياة المتباينة، وتلك لها بالدين أبرُّ صلة وأكرمُ رباط. بل لا ينهض بها إلا الدينُ الذي يجعل الإنسان يؤثرُ - دائماً -

(١) متفق عليه.

مرضاتِ ربِّه فيما يأخذ أو يَدع، ويراقبُه ويخشاهُ في السِّر والعَلَن.

لا بُدَّ أن يتوافر للنفس أمران القناعة والرضا، اللذان يُفيضَان على النفس الاستقرار والوقوف عند معالِمَ وحدود؛ إذ لا يصلح أمر الإنسان إذا شُغلت النفس بامتلاك كلّ ما تتطلع إليه.

ولأمرٍ ما أراد الحق - تبارك وتعالى - أن يُعلّمَنَا حين امتنَّ على نبيه ﷺ فقال: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴾[1] فجعل الرضا أعلى مراتب النعمةِ والعطاء. لم يَقُلْ كمًّا محدوداً، أو مالاً معدوداً بل قال: ﴿ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾

والحق إن إنساناً تعطيه من المال عداً وافراً ثم يُسْلَبُ نعمَةَ الرضى، فتجده من ماله في شقاء ! وإنساناً آخر تُعطيه من المال قدراً ضئيلاً ثم يُمنح نعمةَ الرضا، فيكون من حاله في هناء، وهذا الرضى القانع لا يمكن أن يتم بالحصول على ما ترغبُ النفس وتشتهي.

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبتها وإذا تُرَدَّ إلى قليلٍ تقنع

إنما يتم الرضى بخصائص النفس ونزاهة الطبع وصدق التدين، عندئذ يُمنح الإنسان الرضى، لا بالحصول على ما يرغبُ ويشتهي. فإن النفس غير القانعة كلما أُعطيت طلبت المزيد، ولا تعرف حدًّا لما ترغب ولا حدوداً لما تشتهي.

لذا رغَّب الإسلام في صاحب الدين؛ وصاحبة الدين ليضمن سلامة العشرة وصفاءَ المودة؛ وليقوم في البيت أساسُ التربية الصحيحة لاستقبال الوليد الذي تتفتح عينهُ على طُهر البيت ونظافته.

---

(١) الضحى : ٥.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ » [1]

أخي المسلم:

هل رأيت كيف يُهَيَّأ الجو للتربية الصحيحة بتخير التربة، والبذرة الصالحة، والجو الصالح.

إن إهمال هذا الجانب انحراف بالتربية من أول الطريق ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[2]

أيها القارئ الكريم:

إن التربية الإسلامية الصحيحة تستوجب حُسن القُدوة في كل شئ، وقد رأيت حرصَ الإسلام على تهيئة جو صالح ينشأ فيه الطفل، وهذه التهيئة تتم قبل أن يولد الطفل بتخير التربة الصالحة والبذرة الصالحة والجو الصالح الذي ينشأ فيه الطفل، وهذا كلُّه لا يتم إلا بتدين صادق وإيمان يسيطر على جوِّ الأسرة ويجعلها تنعم بعَبَق الطُهر والاستقامة والعفاف.

إن الإسلام حَفيٌّ بشرف التربة التي ينشأ فيه الطفل، والأرحام التي يُجْعَل في قرارها. فهو يُحرِّم الزنى؛ حتى تتوافر للإنسان قبل أن ينـــزل إلى الدنيا أسرةٌ ترعاه، وأبوةٌ تحوطه، وأصلٌ يمتد به نسبُه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[3]

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) التغابن : من الآية ١١.

(٣) الإسراء : ٣٢.

وهو في سبيل المحافظة على هذه التربة وصيانتها يمنع الأسباب التي قد تجر إلى إفسادها ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (١)

عنايةٌ كاملةٌ بتهيئة تربة شريفة طاهرة ينبت بها غرس كريم، ينتمي إلى أسرة محفوفة بالطُهر مُحصنة بالعفاف ؟.

عنايةٌ بإعدادِ جو صالح لتربية الإنسان قبل أن يتدرج في الخَلْق بل قبل أن تَحْمِلَه الأرحام.

وُلِد الإنسان، فتعالوا نتابع سَيْر الإسلام في تربيته وإعداده، نأخذ ذلك من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

إنه يعتني برضاعته وحضانته وتحديد المسئوليات التي تترتب على ذلك؛ حتى لا يضيع الطفل بين ما قد ينشأ في الأسرة من مشاكل، وبخاصة بين الأبوين.

﴿ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ

(١) النور : الآية ٣٠؛ ومن الآية ٣١.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ (١)

وما أجلّ وأبر وأكرم وأحوط للرعاية أن تسمع في ختام الآية ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

إنها العناية بأمر الإنسان ورعاية أمره. والله يأمر بالتقوى بعد بيان الحقوق والواجبات حتى تسلم النفوس من دوافع الهوى، وينعم الجميع بنعمة العدل والبر، والله بصير بالأعمال والمقاصد لا تخفى عليه خافية ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾(٢)

وفي سبيل التربية الإسلامية الصحيحة يُعني القرآن بالأمومة (أم الطفل) ويجعل البرَّ بها ممتداً لا ينقطع، ولا يجعل للمشاكل التي قد تنشأ بين الأبوين أيَّ تأثير على حقها أو حقّ الوليد التي تستقبله الدنيا ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾(٣)

حثٌّ للأم ألاَّ تنسى أمومتها بعد حثّ الأب ألاَّ يَضنَّ بالراحة على الأمومة، والعناية بالطفولة، كلٌّ في حدود طاقته ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ

(١) البقرة : ٢٣٣.
(٢) يونس : من الآية ٦١.
(٣) الطلاق : ٦.

عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[1]

ونرى الإسلام - دائماً - يُثير دواعيَ الحبِّ والرحمة، ويعملُ على توطيد الألفة والمودة بين الزوجين الذين ينشأ الطفل بينهما.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[2]

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ ﴾[3]

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[4]

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾[5]

---

(١) الطلاق : ٧.

(٢) النحل : ٧٢.

(٣) الأعراف : من الآية ١٨٩.

(٤) الروم : من الآية ٢١.

(٥) النساء : من الآية ١٩.

أخي المسلم:

أنت ترى أن القرآن الكريم يجنب الأسرة أسبابَ الخلاف، وهُو يذكرها بالرحم، ويربطها بالرحمة، ويعصمها باليقين، ومع كل هذا إن دبَّ خلافٌ بين الزوجين أو خيفَ شقاق، ندب القرآنُ إليه أُولي الفضل من الرجال، وأُولي القرابة من الأرحام، ووقف يسدد خُطَوَاتِهما بالتوفيق إن عزما على إقامة صُلح أو إعادة ود

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾[1]

وإن اتسع الخلاف وعُدِم الوفاق، وقف القرآن يطلبُ تحقيق البِرّ بينهما حتى في حالة استحالة العشرة، وهو يطلب المعروف في الحالين في حالِ قيام الزوجية، أو إنفصالهما ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾[2]

أرأيت مدى العناية التي أولاها القرآنُ للإنسان في نشأته، ورضاعته، وحضانته، وتوفير المودة بين أسرته.

أخي المسلم:

إننا مع التربية الإسلامية الصحيحة نمضي مع خطِّ سير الإنسان؛ لنرى كيف يُهَيَّأ الجو الصالح والبيئة الصالحة للتربية الإسلامية الصحيحة.

إن جميع العوامل التي تَحُول دون تحقيق هذه الغاية يعمل الإسلام على إزالتها، حتى ينشأ الطفل في جوٍ طَهور، ويُربَّى في مجتمع تقوم روابطه على الأخلاق والآداب، فلا تتناقض وسائلُ التربية بعضُها مع بعض بل تتآخي جميعها في تحقيق غاية واحدة

(١) النساء : ٣٥.

(٢) البقرة : من الآية ٢٣١.

(هي المحافظة على الإنسان بقيمه وأخلاقه) حتى ينعم برضى الله في دُنياه وآخرته.

والتربية التي لا ترعى الإنسان في جميع مراحله دُنيا وأخرى هي تربية قاصرة مخادعة، تُلَهِّي الإنسان بدنيا مرغوبة، ثم تدعه بعدها صريعَ ألم وندم وحسرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝ ﴾[1]

أيها القارئ الكريم:

قد يفقد الطفل أحد الأبوين أو كليهما، لا عن طريق الفُرقة والشقاق - وقد رأينا كيف عالج القرآن أمرهما - بل عن طريق الأجل المحتوم، فماذا تكون عناية الإسلام بالطفل ؟

تعال بنا نتابع ونتدبر القرآن وهو ينظم الحقوق التي تتعلق بالميراث والوصية أدق تنظيم، ويطلب رعاية مال اليتيم والبرَّ به ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ ﴾[2]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝ ﴾[3]

ثم انظر كيف يُخاطبُ القرآنُ النفـــوس، وينبهها بما تقشعر منه الجلود بتقرير الواقع الذي قد تنشغل عنه النفوسُ بطمعٍ أو تطلع ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟

---

(١) النمل : ٤، ٥.

(٢) النِّساء : ٢.

(٣) النِّساء : ١٠.

﴿ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[1] لا يَعْرِفُ أحَدٌ ماذا يأتي به الغد ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[2]، فعلى الذين يخافون على ذريتهم من بعدهم أن يخشوُا الله ويتقوه في كل شئ وفي مَنْ يتولون أمرهم في اليتامى، وليقولوا قولاً جميلاً هادياً إلى محاسن الآداب وكريم الصفات. فاليتيم - لا يُضيَّع - ودين الله قائم. إن الله يجمع بين عبادته وبين الإحسان باليتامى في آية واحدة ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾[3]، ويجعلُ من أسباب التكذيب بالدين إيذاء اليتيم أو النيل من حقوقه ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾[4]

إن المجتمع الإسلامي - وهو يُطبِّق تعاليم دينه - لا يُضيِّعُ فيه ضعيفٌ أو يتيم، بل تسود الرحمةُ كلَّ شئٍ من إنسان وحيوان.

« فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ[5] أَجْرٌ »[6]

« عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا

(١) النساء : ٩.
(٢) لقمان : من الآية ٣٤.
(٣) النساء : من الآية ٣٦.
(٤) الماعون : ١ : ٢.
(٥) أَيْ كُلِّ كَبِدٍ حَيَّةٍ، وَالْمُرَادُ رُطُوبَةُ الْحَيَاةِ، أَوْ لأَنَّ الرُّطُوبَةَ لازِمَةٌ لِلْحَيَاةِ فَهُوَ كِنَايَةٌ.
(٦) متفق عليه.

إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ » (١)

إنه مجتمعٌ مترابط متكافل، ليس من حقِّ واحد أن يقول: هذا موضعي أفعل فيه ما أشاء.

بل على المجتمع أن يأخذ على يد كل مفسد، وعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. عليه أن يوفر الأسباب لاستقرار النفس وطمأنيتها وتربيتها تربيةً إسلامية صحيحة تبعد بها عن أسبابِ الفحشاء والمنكر والبغي.

أخي المسلم:

بدأتْ عينُ الطفل تتفتح للحياة، فلنتابع السير معه؛ لنرى أسلوب التربية الحكيم الذي يُحققه الإسلام في جميع المراحل.

إن الأمَّ - والطفلُ يتدرج بين يديها - مأمورةٌ أن تغرس فيه أكرمَ العادات وأن تتجنب الوعود الكاذبة التي تُغريه بها دون تنفيذ، حتى يتعود الطفل -منذ نعومة- أظفاره على الصدق، ومعرفة ما يحل له وما لا يحل.

وتعالوا بنا نرى هَدْيَ مَن **كان خُلُقُهُ القُرآن** ﷺ في توجيه الأطفال وتعويدهم على العادات الطيبة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ **« أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ أَخَذَ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ** ﷺ**: كِخْ كِخْ، أَمَا تَعْرِفُ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ »** (٢)

الله أكبر.. تأمل كيف ينهى الرسول ﷺ الحسن وهو صَبِيٌّ عن أكل تمرة لا تحل له، ويأمره أن يَرْمِ بها ويقول في رواية: **« أَلْقِهَا؛ فَإِنَّهَا لا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ »** (٣)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد.

في الحديث المتفق عليه عن عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ قال: « كُنْتُ غُلامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّه ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّه ﷺ: يَا غُلامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ » (١)

وروى أبو داود بإسناد حسن عن عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ » (٢)

إن مسئولية الرعاية تتوزع وتتعدد، فعلى كل مسلم واجبُه حيث كان موضعه. والصبي وقد وصل إلى سنة أو عشرة تمتد رعايتُه من البيت إلى المدرسة إلى المجتمع بعاداته وتقاليده، وكل أولئك مسئولون بين يدي الله عن القيام بواجب التربية الإسلامية الصحيحة، وأن تتسق الجهود ولا تتناقض في تحقيق الغاية الواحدة حتى يستطيع المجتمع الإسلامي أن يحافظ على الشخصية الإسلامية بإيمانها وسلوكها.

في الحديث المتفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه. فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِه رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِه رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه. قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلاءِ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ،وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه. فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه » (٣)

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه البخاري.

أيها القارئ الكريم:

إن التربية الإسلامية أساسٌ في إيجاد مجتمع طَهُورٍ ينعَمُ الإنسان فيه بنعمة الأمن على النفس والمال والعِرض، وقد رأينا كيف يعمل الإسلام على إيجاد بيئة صالحة يتوافر فيها للطفل أن ينشأ على الخير، وأن يتدرج في معالي الفضيلة والطُهْر.

وتعالوا بنا نتابع السير، لنرى ما يفرضه الإسلام على أبنائه من آداب، وما يحدده من سلوك.

لقد رأينا من قبل دعوة الإسلام إلى اختيار الزوجة الصالحة والزوج الصالح، ورأينا عنايته برضاعة الطفل وحضانته وتحقيق الأُلفة بين أهله، ورأينا مسئولية الفرد والمجتمع في ذلك.. وتأملنا هدي رسول الله ﷺ في تربية الأولاد وتوجيههم. وماذا صنع مع الحسن بن علي - رضي الله عنهما - حين تناول تمرة من مال الصدقة، وهو صبي، وكيف زجره وقال له: « **كِخْ كِخْ، أَمَا تَعْرِفُ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ** »[1] كما تأملنا أمره وهو يقول ﷺ: « **مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ** »[2]

وقد قلنا من قبل: إن الصبي وقد وصل إلى سن سبع أو عشر تمتد رعايته من البيت إلى المدرسة إلى المجتمع، فواجبٌ أن تَتَّسِقَ الجهودُ وأن تتضافر وسائلُ التربية ولا تتناقض.

ولنمض لنرى أُسُسَ التربيةِ الصحيحة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

أنظر إلى الضوابط والحدود التي يرسُمها القرآن لسلوك الإنسان منذ صباه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود.

يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [1]

آدابٌ ينشأ عليها الطفل، وأخلاقٌ تقوم في البيئة الإسلامية بدافع من إيمان ويقين، الطفل قبل الحُلم يستأذن في أوقات معلومة ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ﴾، وإذا بلغ الحُلم يؤمر بما يُؤمر به غيره ﴿ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾[2]

ومن الاستئذان على كل حال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا

(١) النور : ٥٨، ٥٩.

(٢) النور : ٥٩.

تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

وأنظر إلى من كان خُلُقُهُ القُرآن ﷺ وهو يعلمنا أدَب الاستئذان وحدودَه.

عن أبي موسى الأَشْعَرِيُّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « الاسْتِئْذَانُ ثَلاثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ وَإِلاَّ فَارْجِعْ » (٢)

وروى أبو داود بإسناد صحيح عَنْ رِبْعِيٍّ قَالَ: حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْت، فَقَالَ: أَلِجُ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِخَادِمه: اخْرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلِّمْهُ الاسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُلْ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ ؟ فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَل » (٣)

وروى أبو داود والتِّرمذي عن كِلْدَةَ بن الحَنْبَلِ ﷺ قال: أَتَيْتُ النبي ﷺ فدَخَلْتُ عليه و لم أُسَلِّم، فقال النبي ﷺ: « ارجعْ فقل: السلام عليكم أأدخل ؟ » (٤)

وفي الحديث المتفق عليه عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ » (٥)

أخي المسلم:

إن الإسلام ينشد مجتمعاً طَهُوراً تصان فيه الحُرُمات.

لذا فإن الآداب التي قرَّرها، والأخلاقَ التي أقر بها هي - وحدها - التي تصون المجتمع من التردي في مهاوي الرذيلة والمنكر.

---

(١) النور : ٢٧ - ٢٩.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه أبو داود والترمذي.

(٥) متفق عليه.

ومجتمعاتنا الإسلامية في حاجة إلى أن تُفَرَّقَ بين أمرين بين نتائج العلم المادي، وآداب السلوك. إن العلم ونتائجه ميراثٌ بشري عملت فيه الإنسانية منذ آدم-عليه السلام- وتوارث لاحق عن سابق، حتى امتدت فروعه وتعددت نتائجُه، فالعلم ليس مِلكاً لأمَّةٍ دُونَ أُمَّة، وإنما هو للإنسانية جميعاً.

وقد خَطتْ به الأمةُ الإسلامية أعظم الخطوات وأبرَّها يوم أن كان نشاطُها - في جميع الحالات - يرتبط بدينها. ونحن مطالبون أن ننشر العلم مهما بعدت به أو بنا الدار. أما آداب السلوك. فلكل أمة مقوماتها وشخصيتها، إن هي تنازلت عنها - مقلِّدة غيرها - فقد أبت إلاَّ أن تكونَ كالببغاوات أو القرود التي تحكي قول الغير وتُقَلِّدُ عَمَلَهُ.

إننا أمة تميزت بشخصيتها على مَرِّ التاريخ، وعُرفت بها.

والإسلامُ هو الذي حَفظها وحافظ عليها، وحقق لها الاحترامَ بين الأمم، وجعل لها مجداً وتاريخاً. وجعلها رائدة الأمم في جميع مجالات الخير. فلنحذر التقليد الأعمى لعادات الغير وسلوكه.

فإن الدنيا جميعَها في حاجةٍ لأن تنعم بأمن المسلم وإيمانه، وأن تسعد بنوره ويقيته.

إن الرجال الذين أنجبتهم آداب هذا الدين هم غُرَّة جبين الدهر، ووسامُ الشَّرف في التاريخ الإنساني.

فلنأخذ أنفسنا بآداب ديننا، ولنحذر أن نفرط يوماً في مقومات شخصيتنا الَّتي تقوم على الإيمان وآدابه حتى لا نضلَّ أو نُضَل.

والرسول ﷺ ينبهنا إلى موطن هدايتنا وعصمتنا، فيقول: « **تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ** »[1]

* * *

(١) رواه مالك في الموطأ.